أصبح القتل بدون هدف أو داع إلا

إرضاء شهواته الدموية، كل هذا

بأسم التقوى والورع، فالفارس الغربى

الأن يستطيع القيام بالقتل طوال نهاره

وهو على ثقة أنه على الطريق الصحيح للجنة

وكأى من الأحداث الكبرى ذات النتائج الخطيرة كانت البداية هادئة ومتواضعة، بابا متنازع على منصبه وممنوع من دخول عاصمة الباباوية، فى إجتماع متواضع بحقل فى بلدة فرنسية صغيرة، من المؤكد أن الأساقفة ومقدمى الأديرة الثلاثمائة والعشرة المجتمعون الأن بكليرمونت غير مدركين كم الضحايا الذين ستزهق أرواحهم والمشردين الذين سيهيمون بحثاً عن مكان أمن لهم ولأولادهم بسبب إجتماعهم هذا، عندما لفظت أوروبا الفقيرة الغارقة فى ظلام الجهل والمرض فلذات أكبادها عسى أن يجدوا حظاً أفضل فى الشرق الواسع الثراء والمفعم بالحضارة، ولن يكتوى المسلمين فقط بنيران الفرنج الهمج بل طالت المسيحيين الشرقيين الكثير من هذه النيران، فالقائمون على هذه الحروب كانوا أبعد ما يمكن عن تعاليم المسيح الممتلئة بالمسامحة والسلام، ولم يستطيعوا التفرقة بين المسلمين ومسيحي الشرق فالكل شرقى، إذن فالجميع أعداء، وكان ما أدى إلى نجاح الحروب الصليبية فى موجاتها الأولى فى تحقيق أهدافها بتكوين مستعمرات غربية فى الشرق أنما هو عدم الوحدة بين العرب، وما إن أستفاق العرب وأتحدوا حتى أستطاعوا تطهير ترابهم من المغتصبين، وأجتمعت فى بدايات القرن الحادى عشر الميلادى العديد من الدوافع التى أدت لألاف الأوروبيين لترك أوطانهم والبحث عن وطن بديل لهم، ولكن لنرى ما يمكن إعتباره الشرارة الأولى لهذه الحرب،

سنبدء من قبل كليرمونت بعدة قرون، عندما نجح المسلمون فى إجبار البيزنطيين على التراجع تحت ضغط الفتوحات الإسلامية وأنار نور الإسلام سوريا ومصر وشمال أفريقيا فى بضع سنين، وسيطر المسلمون على بيت المقدس خلال خلافة عمر بن الخطاب عام 637م، وإن لم تنقطع الصلة بين الغرب وبيت المقدس بفضل التسامح الإسلامى، كما شهدت الدولة الأموية عدة محاولات مبكرة لفتح القسطنطينية، عقب فرض السيطرة الإسلامية

على البحر المتوسط بالإنتصار فى معركة ذات الصوارى35هـ/655م، وكما نجح المسلمون فى السيطرة على جزيرة قبرص وجزر البليار وكريت وسردينيا فى البحر المتوسط، وتم فتح الأندلس (أسبانيا) خلال الدولة الأموية 711م، وعبر المسلمون جبال االبرانس ليهاجموا فرنسا ويستولوا على أجزاء واسعةٌ منها، وإن أستطاع شارلمان وقف التقدم الإسلامى فى معركة بلاط الشهداء 114هـ/732م مما رفع شارلمان لمصاف الأبطال القوميين لأوروبا، وتكفلت الصراعات الداخلية الإسلامية فى أيقاف محاولات فتح أوروبا حتى حين، ويشهد الصراع منحنى جديداً خلال الدولة العباسية بما عُرف بالشواتى والصوائف[1]، توج هذا النشاط العسكرى الإسلامى بتوغل الخليفة هارون الرشيد فى أسيا الصغرى وإجباره الأمبراطورة البيزنطية "أيرين" على دفع جزية ضخمة، وعندما حاول الأمبراطور نقفور التملص من دفع هذه الجزية كان نصيبه هزيمة منكرة على يد الجيوش العباسية، ولعل اكبر هزيمة نالتها بيزنطة من العباسيين كانت على يد الخليفة المعتصم الذى قاد جيشه رداً على تجرء الأمبراطور ثيوفيلوس على مهاجمة الثغور الإسلامية، فهاجم المعتصم مدينة عمورية (هرقلة) مسقط رأس الأمبراطور محطماً أياها،

حتى أستطاعت دولة الأغالبة بتونس فتح جزيرة صقلية 212هـ/827م، وجزيرة مالطا 221هـ/835م، وفتح المسلمون كالبريا بجنوب إيطاليا ويستمر التقدم الإسلامى حتى مدينة روما فى 231هـ/841م التى هاجمها المسلمون وأستولوا عليها بينما يسارع البابا ليو الرابع بالهرب والإختباء، الأمر الذى أرق مضاجع الباباوية، ليجئ الفاطميون ويعيدوا الكرة فى مهاجمة صقلية والإستيلاء عليها 333هـ/915م، وهاجموا كالبريا، وهاجموا أقليم لمبارديا، وفتحوا مدينة جنوة 323هـ/935م، عندما بعث الخليفة القائم بالله الفاطمى

[1] الصوائف والشواتى حروب حدودية شغلت فترة طويلة خلال الدولة العباسية، وبلغت ذروتها فى بداية الدولة العباسية، وأن أخذت فى الأفول بضعف الخلافة، وخلال خلافة المعتضد 287هـ أغارت الروم على طرسوس والتى لعب حجر الزاوية خلال أواخر الصوائف وكان نائبها طغج بن جف الأخشيد والد محمد الأخشيد، ليرد الطولونيون فى العام التالى عندما أغار خماروية على بلاد الرقة برياً وبحرياً، وفى عام 294هـ أغار أحمد بن كنغلغ نائب دمشق العباسى من ناحية طرسوس وهزم ملك الروم، وعام 297هـ و298هـ غزا القاسم بن سيما الصائفة، وتهاجم الروم اللاذقية نفس العام، وعام 301هـ غزا الحسين بن حمدان الصائفة وفتح حصون فى بلاد الروم، وعام 302هـ هزم مؤنس الخادم الروم هزيمة كبيرة، وفى عام 319هـ أوقع ثميل متولى طرسوس بالروم وقعة كبيرة وأسر ثلاثة آلاف منهم، البداية والنهاية ج6

أسطوله "وأفتتحوا مدينة جنوة وغنموا غنائم كثيرة وثروة ورجعوا سالمين"[2] وهاجموا جنوب فرنسا،

ويشهد القرن العاشر الميلادى نمو حالة العداء الأوروبى للإسلام، وتزداد وتيرة هذا العداء وحِدته بزيادة النجاحات التى صادفها الغرب الأوروبى خلال صراعه ضد الشرق الإسلامى، وتمهد حركة الريكونكيستا[3] بالأندلس السبيل أمام الدعوة لحروب مقدسة بمباركة كنسية، وكان هاديه خلال هذه النجاحات هو التشرذم والضعف الذى كان ينخر فى الكيانات السياسية الإسلامية إينذاك ،

لتحاول الدولة البيزنطية تحت حكم الأسرة المقدونية القوية التى بعثت روح جديدة بها ـ مستغلة الضعف الذى سيطر على الدولة العباسية ـ إسترجاع بعض الأراضى التى فقدتها، فقامت بالسيطرة على قبرص ورودس وكريت وأنطاكيا فى عام 358هـ/969م، وفرض نوع من السيطرة فى شمال الشام، بل وصلت الجيوش البيزنطية أكثر من مرة لقرب مدينة القدس إلا أن الدولة الفاطمية نجحت فى وقف تقدمهم،

وهناك من يحاول إعتبار محاولات البيزنطيين فى فرض سيطرتهم على بيت المقدس إرهاصات للحروب الصليبية، بل هناك من يرجع الصليبيات لأبعد من هذا التاريخ، عندما قام الأمبراطور البيزنطى هرقل بقتال خسرو الثانى كسرى الدولة الفارسية الساسانية قبل الفتوحات الإسلامية، بعد أن نجح الفرس فى إنتزاع الشرق الأدنى من البيزنطيين، وأحتل القائد الفارسى "شهربراز" مدينة القدس عام 614م، بل وتحالف الفرس مع قبائل الآفار التترية (البلغار) وحاصروا القسطنطينية عام 619م، بعد رفض كسرى طلب الصلح الذى تقدم به هرقل، وإثر فشل حصار القسطنطينية يأخذ هرقل المبادءة بمساعدة كنسية التى وجهت كامل جهودها للقتال ضد الفرس الذى أخذ منحنى دينى أكثر منه سياسى، لينتصر البيزنطيون على جيش فارس الرئيس عند مدينة نينوى (الموصل) عام 627م، وينجح فى إستعادة الشام ومصر وبيت المقدس 630م التى أستقبلت هرقل إستقبال الأبطال، بعد أن أقتحم مدينة همذان عاصمة فارس وإستعاد ثلاثمائة راية رومانية كان الفرس

[2] البداية والنهاية، أبن كثير ج6 ص237
[3] حرب الأسترداد وهى الحرب التى شنها الأسبان لطرد المسلمين من الأندلس

قد غنمـوها قبل ذلك، مصداقاً لما جاء بالقرآن الكريم بقوله تعالى **"ألم، غُلبت الروم فى أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون، فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، يومئذ يفرح المؤمنون"**[4]، وإن كان هذا الربط محاولة لإضفاء الصبغة الدينية على الحروب البيزنطية الفارسية، والتى كانت منافسة بين قوتين إستعماريتين، على أراضى لها أصحابها متجاهلين حق أبناءها فيها، ومن ثم إعطاء الحروب الصليبية الصفة الدينية بالتبعية وإعتبارهم ورثة الأمبراطورية البيزنطية فى ممتلكاتها بالشام ،

وإن كان معاصرى هذا الصراع يجهلون تماماً مصطلح الحـرب الصليبية، فقد أطلق مؤرخى الفرنجة على هذه الحروب عدة أسماء مثل أعمال الفرنجة وراء البحر، والحج، والطريق إلى القدس، والحرب المقدسة، أما مصطلح الحرب الصليبية فهو حديث المنشأ ظهر فى فرنسا فى كتابات القرن السابع عشر،

معركة ملاذكرد

أضطرت قبائل الغـز التركية إلى ترك مسقط رأسها بسهـوب أسيا فى منغوليا وتخوم بحر أرال، والفرار غرباً تحت ضغط السيوف المغولية والبحث عـن مكان يؤويهم، بعد إعـتناقهم الدين الإسلامى تبعاً للمذهب السنى، مما أعطى دفعة قوية وزخم للدولة العباسية المترنحة، لتستقر هذه القبائل بتخوم مدن سمرقند وبخارى أوائل القرن الرابع الهجرى وتعاونت من الدولة السامانية فى نشر الإسلام بين باقى القبائل التركية الوثنية، وأن أدى تدفق هؤلاء المقاتلون المتبعون للمذهب السنى إلى الإصطدام بالقوى الشيعية التى كانت مسيطرة على الشام إينذاك، والمتمثلة فى الأسر العربية بشمال الشام، كالدولة المرداسية بحلب، وبنى عقيل وبنى عمار بصور وطرابلس، وكذلك الفاطميين بجنوب الشام، وأستقر التركمان فى فارس وأنتشر باقيهم تحت قيادة السلاجقة[5] برئاسة زعيمهم طغرلبك الذى أتخذ مدينة أصفهان عاصمة لدولته، وإستطاع السيطرة على بغداد 1055م وطرد أسرة بنى بوية الشيعية

[4] سورة الروم - 3

[5] ينتسب السلاجقة لجدهم سلجوق بن دقاق وقد أعتنقوا الإسلام وأتبعوا المذهب السنى لمجاورتهم للسامانيين وأستطاع طغرلبك الإستيلاء على نيسابور ليؤسس الدولة السلجوقية 429هـ/1038م وتحت ضغط البويهيين المسيطرين على الخلافة العباسية أضطر الخليفة القائم (422-467هـ/1031-1075م) لطلب العون من طغرلبك الذى دخل بغداد مسقطاً السيطرة البويهية على العباسيين

منها وإعادة الخليفة القائم بدين الله لمنصب الخلافة، حتى وجدوا ضالتهم فى هضبة الأناضول حيث مناطق قريبة الشبه ببيئتهم الأصلية وكما إنها مفتقره للوسائل الدفاعية، مما مكنهم من الأستقرار بها بعد زيادة إنسياح القبائل التركمانية لأسيا الصغرى التى فشلت الدولة البيزنطية فى وضع حد لهذه الهجرات التركية ،

وإزدادت الهجرات التركمانية، ففى 455هـ/1063م دخل إلى مدينة حلب مجموعات من التركمان تحت قيادة هارون بن خان، وأدى النظام القبلى لهؤلاء المحاربين إلى ظهور قوات مقاتلة مرتبطة بزعماءها، كما شوهد تنامى قوة بعض هؤلاء الزعماء مثل الأفشين الذى هاجم مدن وقرى الشام بقواته مما أحدث تخريباً وتدميراً شديد بدفاعات الشام قبيل قدوم الصليبيين، والأهم من ذلك هو النزاع وحالة العداء التى أستشرت بين القوى الإسلامية بالشام، الأمر الذى قضى على أى حكومة مركزية بها، ومزق مدنها إلى جزر متفرقة لايوجد أى ترابط أو تعاون بينها ،

بعد الإغارات التى قام بها السلاجقة تحت قيادة إبراهيم بن إينال أبن أخى طغرلبك، يستتبع ألب أرسلان بن جغرى بك وخليفته النشاط العسكرى السلجوقى بعد وفاة أبيه، والذى شهد إنتزاع بعض المدن الهامة بأرمينيا، كما أستطاعت جيوش ألب أرسلان الإستيلاء على القدس وجنوب الشام من الدولة الفاطمية، وفتح باب الحروب بينهم وبين الأمبراطورية البيزنطية العجوز صاحبة السيادة على الأناضول،

وقد أدى الفساد الذى ضرب أرجاء الدولة البيزنطية، عقب موت الأمبراطور باسيل الثانى عام 416هـ/1025م وتعاقب العديد من الأباطرة الضعاف إلى إحتضار الأمبراطورية، حتى إعتلاء الأمبراطور ألكسيوس كومنين Alexius Comnenus(473-511هـ/1081-1118م)، وقضاء النورمان بتشجيع من البابوية على بقايا النفوذ البيزنطى بإيطاليا، عندما أعترف البابا نقولا الثانى بروبرت جويسكارد بن تانكريد هوتفيل حاكماً لأبوليا وكالبريا والأمارات اللومباردية بجنوب إيطاليا بشرط إعترف روبرت بسلطة البابوية على هذه المقاطعات، وكما أدى قيام سلسلة متعددة الحلقات من ثورات ضد الحكومة المركزية، وضياع الأناضول التى كانت تعتمد عليها الدولة البيزنطية فى توفير الجنود والغذاء بسقوطها تحت سيطرة السلاجقة، وبوار الأراضى

الزراعية الآقطاعية، التى كانت العمود الفقرى لمد الجيش البيزنطى بالمحاربين من حائزى هذه الإقطاعات، يضاف لذلك حرص الأباطرة الضعاف على إضعاف الجيش البيزنطى وإستحداث البدل النقدى مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية، لضمان عدم ظهور طامعين بالعرش من قادته، كل هذا أدى إلى إعتماد الدولة البيزنطية على المرتزقة الأجانب باهظى التكاليف ومعدومى الولاء لتغذية جيوشها، وخصوصاً من نورمان إيطاليا، وقبائل البشناق والكمار التركية، مما جعل جيشها أقرب ما يكون إلى لوحة فسيفساء سهلة التحطيم، وكما أدى الصراع على السلطة وكثرة الطامعين فى العرش، إلى أنحدار الدولة فى دوامة من الإقتتال الداخلى، فى الوقت الذى أنساب السلاجقة المسلمون فى أسيا الصغرى وأخذوا فى إقتطاعها على مراحل،

كان على رأس الأمبراطورية البيزنطية الأمبراطور رومانوس الرابع ديوجينوس (463-460هـ/1068-1071م) الذى أوقعه حظه التعس أمام القائد المسلم السلجوقى القوى عضد الدولة أبو شجاع محمد ألب أرسلان بن جغرى بك فى معركة ملاذكرد(مانزكيرت)[6] 1071م، فقد حاول رومانوس طرد السلاجقة من أرمينيا لتأمين حدود أمبراطوريته الشرقية، وعمل على تجميع أكبر جيش ممكن لمواجهة فرسان السلاجقة شديدى البراعة والمهارة بحروب البدو الرحل، الذين يعتمدون على خفة الحركة والقدرة الفائقة على المناورة، فى الوقت الذى أعتمد الجيش البيزنطى الهش على المشاة الثقيلة، والفرسان التركمان والأوربيين المرتزقة ثقيلى العدة والحركة، ويهز الأمبراطور الغرور عندما يعرض عليه السلطان السلجوقى الهدنة، ليجيبه رومانوس لا هدنة إلا فى الرى عاصمة السلاجقة، ويقسم الأمبراطور الأقاليم الإسلامية على قادته، وأرتكب الأمبراطور المغرور خطأ فادح بتقسيم جيشه فقد أرسل قسم منه لمهاجمة مدينة خلاط تحت قيادة روسل دى باليول وجوزيف تارخانيوس، وبينما الجيش البيزنطى يزحف لميدان القتال عششت داخله الخيانة،

وإنتهت المعركة بكارثة بيزنطية حيث أتبع فرسان السلاحقة تكتيك محاربى الصحراء الأشهر بأن تظاهروا بالهزيمة والفرار، وما أن أتبع البيزنطيون آثرهم حتى إنقلب السلاحقة وهاجموا مطارديهم، وحصدت سيوف السلاجقة

[6] بليدة بأرمنيا شمال بحيرة فان

رقاب البيزنطيين "وقتل من الروم مالا يحصى حتى أمتلأت الأرض بجثث القتلى"[7] وتم أسر الأمبراطور نفسه على يد أمير أسمه شادى، بعد أن دفعت عصبية الدم التركمان وتأخر رواتبهم إلى الأنفضاض عن الأمبراطور والإنضمام للسلاجقة، بل أن النورمانديين المرتزقة بقيادة قائدهم روسل دى باليول أتخذوا موقف المشاهد والجيوش البيزنطية تتمزق بسيوف السلاجقة، والأنكى هو إسراع طامح بيزنطى فى العرش وهو أندرونيكس دوكاس بالإنسحاب بقواته والإسراع للقسطنطينية للفوز بالعرش، ليكون الأكثر رحمة برومانوس هو السلطان ألب أرسلان، الذى يطلق سراحه بعد أسره بثمانية أيام عقب أخذه عليه المواثيق بعدم التعرض للأراضى المسيطر عليها السلاجقة، وإطلاق جميع الأسرى المسلمين ببلاده، لتكتمل حلقات التعاسة لرومانوس، فبمجرد وصوله للقسطنطينية يتم القبض عليه على يد طامح أخر فى العرش هو ميخائيل العاشر (1078-1071م) ويتم سمل عين الأمبراطور التعيس،

وتتأكد السيطرة السلجوقية على أرمينيا وأقليم كبادوكيا ومدينتى الرها وأنطاكيا، وأنفتح باب هضبة الأناضول أمام التوغل السلجوقى، وتم القضاء على قدرة الأمبراطورية البيزنطية على دفع جيوشها إلى ميادين المعارك لسنوات عديدة بسبب القضاء على الجيش البيزنطى الرئيس، مما يوضح عجز الدولة البيزنطية عن القيام بدور حماية الجانب الشرقى لأوروبا ،

الأمر الذى سمح للسلاجقة بإكمال الإستيلاء على هضبة الأناضول ومدنها نيقية ونيقوميديا بجهود القائد السلجوقى سليمان بن قطلميش(قتلميش)، وبعد نجاح سليمان فى السيطرة على نيقية تطلع إلى السيطرة على حلب، الواقعة تحت سيطرة قبيلة بنى عقيل العربية، وأدى الصراع على حلب إلى مقتل سليمان بن قطلميش على يد تتش بن ألب آرسلان السلجوقى وحليفه زعيم بنى عقيل مسلم بن قريش، الأمر الذى أضاف تمزق إلى تمزق القوى الإسلامية،

وتستيقظ الدولة البيزنطية على واقع مرير، سقوط الأناضول ووصول قوات السلاجقة لبحر مرمرة، الحاجز الذى كانت تحتمى به عاصمتهم من الجيوش الإسلامية، وكذلك يمثل فَقْد الأناضول الإطاحة بنظام الإقطاعات العسكرية التى كانت تعتمد على أراضى الأناضول الخصيبة لتغذية جيوشها بالعناصر

[7] الكامل ج5ص65

الوطنية، مما أجبر الأباطرة على زيادة الأعتماد على المرتزقة الأتراك والأوروبيين أكثر لتدعيم جيوشها ،

ويضاف إلى هذه المصائب زحف النورمان من إيطاليا بقيادة روبرت جويسكارد للإستيلاء على عاصمة الأمبراطورية المدنفة، وبعد أن هزم النورمان جيشاً بيزنطياً 474هـ/1081م يضطر روبرت للعودة إلى إيطاليا من منتصف الطريق إلى القسطنطينية لوجود ما يلزم ذلك، تاركاً قيادة قواته لأبنه بوهيمند الذى أكال اللكمات للجيوش البيزنطية المترنحة، الأمر الذى دفع الأمبراطور ألكسيوس للإستنجاد بسليمان بن قطلميش ليعبر سبعة ألاف فارس سلجوقى مضيق البسفور ويستطيعوا هزيمة النورمان وإنقاذ القسطنطينية بينما بوهيمند يسرع خطاه إلى حيث والده 476هـ/1083م ،

كل هذه الأحداث زادت من حتمية إعتماد بيزنطة على المرتزقة لإعادة بناء جيشها المنهار، عقب تلاشى الإقطاعات الصغيرة التى كان أصحابها عماد الجنود الوطنية والمصدر الأساسى للجيوش البيزنطية، هؤلاء الجنود المرتزقة كانوا النقطة الأكثر إلحاحاً فى مفاوضات ألكسيوس مع البابا، لا لتكوين جيوش تتخذ طريق القدس، ولكن قوات تسد النقاط الأكثر خطورة لديه ،

وقد حاولت البابوية إستغلال هزيمة البيزنطيين للسيطرة على الكنيسة الشرقية، فقد راسل البابا جريجريوس السابع الأمبراطور البيزنطى ميخائيل السابع دوكاس عقب عامين من المعركة 1073م عارضاً إجراء حوار للقضاء على الفرقة بين الكنيستين، بينما هو يشجع النورمان على مهاجمة الممتلكات البيزنطية بإيطاليا، ومن الطبيعى قوبل عرضه هذا بفتور، ليجدد خلفه البابا أوربان الثانى (Urban II)[8] (481-492هـ/1088-1099م) محاولات فرض سيطرة روما على الكنيسة الشرقية وإن كان بشئ من القوة مستغلاً الضعف الذى يسرى بشرايين الدولة البيزنطية، ففى عام 1088م أرسل أوربان الثانى سفارة للأمبراطور ألكسيوس كومنين للشكوى من إجبار

[8] أودو دى لاجيرى ولد فى 433هـ/1042م وينتمى إلى أسرة نبيلة من شاتيون بفرنسا، تلقى تعليمه بالمدرسة الكاتدرائية بمدينة ريمس، ثم تدرج فى الوظائف الكنسية، حتى أصبح رئيس شمامسة الكاتدرائية، ثم ألتحق بدير كلونى، حتى أتصل بالبابا جريجورى السابع ثم أختير لخلافته،

الكنيسة الشرقية للاتين المتواجدين بالقسطنطينية على ممارسة شعائرهم الدينية تبعاً للطقوس الشرقية، ليضطر الأمبراطور إلى تقديم تنازلات لروما،

وأضطر البيزنطيون لنسيان خلافاتهم العقائدية مع الكنيسة الغربية والأستنجاد بها لأنقاذ عاصمتهم القسطنطينية، فقد راسل ألكسيوس كومنين (473-512هـ/1081-1118م) خلال عامى 1090/1091م الباباوية وملوك وأمراء الغرب اللاتينى يستنجد بهم لإنقاذ أمبراطوريته بأرسال جنود مرتزقة للقتال ضمن صفوف جيشه ـ وكأنه المستجير بالرمضاء من النار ـ، متشجعاً بقرار البابا أربان برفع قرار الحرمان الكنسى[9] عنه عام 1089م الذى كان فرضه البابا جريجيورى السابع بسبب تأييد ألكسيوس للخارجين عليه، ورأت الكنيسة الغربية الفرصة سانحة أمامها لفرض سيطرتها على العالم المسيحى ككل وكذلك الدفاع عن أوروبا من الخطر السلجوقى الزاحف عليها، فعبور السلاجقة المسلمون للبسفور يمثل كارثة عسكرية وسياسية لأوروبا،

وأن كانت هزيمة الأمبراطورية الرومانية الشرقية فى معركة ملاذكرد لم تكن الأولى أو الأكبر، فقد سبقتها هزائم كثيرة نالتها بيزنطة من الجيوش الإسلامية، وتلت هذه الهزائم العديد من الإستغاثات، ولكن أوضاع أوروبا القرن الحادى عشر كانت مواتية لتلبية الإستغاثة البيزنطية إينذاك ،

وقد كان إعتلاء ألكسيوس كومنينوس للعرش البيزنطى بمثابة إنقاذ للأمبراطورية المدنفة، فقد قدر له لعب دوراً كبيراً فى الأحداث القادمة، بإمكانياته الإدارية والعسكرية العالية التى أعطت الدولة البيزنطية قبلة الحياة، حيث تلاقى خوف الأمبراطور وطموحه إلى إستعادة أراضى دولته التى أستولى عليها الأتراك السلاجقة، والذين كان يتمنى إبعادهم عن حدود عاصمته، مع طموح البابا أربان الثانى (أربانوس)، ذلك البابا الذى لم يكن حتى هذه اللحظة يستطيع دخول روما عاصمة الباباوية، حيث كان هناك من ينازعه الكرسى البابوى تحت أسم البابا جيبرت بمساندة الأمبراطور هنرى الرابع أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة بألمانيا[10][11]، حتى أصبح

---

[9] الحرمان الكنسى من إجراءاته أن ينزع الصلبان والرفات والأيقونات وتوضع على أرض الكنيسة ، وتمنع الكنائس من دق الأجراسها وتنزع هذه الأجراس وتمنع أقامة الصلوات بها ، ويحرم على رجال الدين بها من أكل اللحوم ويجبرون على حلق شعورهم ولحاهم ويحرم إلقاء التحية عليهم

[10] تاريخ الحملة إلى القدس ص 38 ،

[11] كانت هناك حالة من العداء بين الأمبراطورية الرومانية الغربية بألمانيا والباباوية، منذ عام 1075م عندما ألغى البابا جريجورى السابع التقليد العلمانى برفع أيدى الأباطرة عن تعيين رجال الدين وهو ما قاومه

الصراع بين أوربان وجيبرت صراع بين الفرنجة والألمان، فوجد أوربان الطَمُوح فى الدعوة لحرب تجمع حوله قلوب وآلاف السيوف، فرصة ذهبية لعلو نجمه مما يساعده للإطاحة بالبابا جيبرت، وبالفعل فى العام الذى مرت به الفرنجة فى روما فى طريقهم للقدس أستولى أوربان على المدينة[12]، وهذا ما يفسر مقاومة جيبرت لمشروع الحملة الصليبية ،

أربان الثانى كان يتمنى تحقيق ما عجز عنه أسلافه وهو تضيق هوة الخلافات المذهبية بين الكنيستين الشرقية والغربية وخصوصاً بعد القطيعة الكبرى 1054م، وتوحيد هاتين الكنيستين تحت زعامته ولم يجد فرصة افضل من مد يد العون للأمبراطورية البيزنطية راعية الكنيسة الشرقية، مما كان يسمح له بزيادة نفوذه وتحكمه فيها، كما إن حرب هدفها تحرير القدس وحماية الأمبراطورية البيزنطية من المسلمين ستسمح للباباوية أن تصبح المدافع الأول عن المسيحية بدلاً من السلطة الزمنية المتمثلة فى الأمبراطور، منهية الصراع المرير بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، الأمر الذى يرسخ سلطة الكنيسة على أوروبا بشقيها ،

كل هذا أتحد مع أحوال أوروبا فى هذا الوقت التى كانت أرض طارده لسكانها، فقد كانت أوروبا العصور الوسطى أبعد ما تكون عن العدالة بين أبناءها، حيث أنتشرت الطبقية بكل ما تحمله من أنانية وطفيلية طبقة على باقى الطبقات، فقد أنقسم المجتمع الأوروبى الإقطاعى إلى ثلاثة أقسام، هؤلاء الذين مهنتهم الصلاة، ومن هم مهنتهم حمل السلاح، وأولئك الذين مهنتهم فلاحة الأرض وتوفير لقمة العيش للجميع، الأمر الذى قضى على التفاوت والتدرج الإجتماعى، الأمر الذى جعل الصراع على أشده وأن كان مقهوراً من السلطة، وينتظر ما قد يفجره،

فقد كان هناك السادة من النبلاء الذين لم يكن لهم مهنة إلا الحرب وإستغلال الأراضى الزراعية الخاصة بهم وإلقاء فتات الفتات لأقنان أراضيهم، وهم

الأمبراطور هنرى الرابع وقام بعقد محمع دينى من الأساقفة الألمان وأعلن خلع البابا جريجورى وأرسل له رسالة "الأن وبعد أن تمت أدانتك وإنزال اللعنة عليك بالقرار الصادر من جميع أساقفنا ومنا، ما عليك إلا أن تتنحى عن الكرسى الرسولى الذى أغتصبته، أترك هذا المكان لشخص أخر يستحق مقعد القديس بطرس، لا يمارس العنف من وراء ستار الدين، بل يقوم بنشر تعاليم القديس بطرس الصحيحة، أنا هنرى الملك بنعمة من الله ومعى جميع أساقفتنا، نقول لك تنح، تنحى، عليك لعنة الله الأبدية" (تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ص55) ويرث أوربان هذا العداء الألمانى فى شخصية جيبرت

[12] تاريخ الحملة إلى القدس ص 39

الفلاحون الذين كانوا يعتبرون عبيد يباعون مع الأراضى من ضمن ما تضمه من عقار وماشية وحيوانات وفلاحين، وقد حُرم إقنان الأرض من أبسط الحقوق الإنسانية، فلم يسمح لهم بحق ملكية أى شئ، بل هو وأسرته وكوخه وماشيته ملك للسيد الإقطاعى لضيعته، وكتب عليهم أن يكدحون ليعيشوا وليتحملوا قهر حكامهم، حتى بعد موت القن كان لا يسمح سيده بدفنه إلا بعد أن يحصل على أفضل حيوان داجن لديه، فإن لم يكن لديه حيوان أخذ اللورد أفضل ملابس لديه، أو موقد نحاس، أو الفراش الذى مات عليه المسكين، وأى قن يريد الزواج يجب عليه أن يقدم لسيده قِدراً كبيراً من النحاس، بل على القن أن يسمح بالليلية الأولى من زواجه لسيد الإقطاعية، والغريب أن هذا العرف ظل معمولاً به ببافاريا حتى القرن الثامن عشر، ولا يملك هذا الفلاح خلاص من هذه المعيشة التعيسة التى فرضت عليه، وأقصى ما سمح له هو كوخ قذر من أغصان الأشجار المغطاة بطبقة من الطين، وملابس عبارة عن أسمال من جلود الحيوانات أو نسيج خشن من صوف الأغنام مُصنّع بشكل بدائى، يعيش القن هذه الحياة الغير محتملة القصيرة التى كان تنتهى سريعاً فى الغالب قبل سن الأربعين سواء بسبب الحروب الداخلية المستمرة بين الإقطاعيين، أو بسبب الأوبئة وبدائية الحياة الصحية بأوروبا، كل هذا الذل والمهانة التى عاش فى ظلها الغالبية العظمى من الأوروبيين، يفسر لنا كم الحقد والعنف الذى أظهروه تجاة البيزنطيين والمسلمين الأرقى حضارة والأرغد عيشاً،

فى الوقت الذى كان سيد الإقطاعية يراقب أراضى إقطاعيته من أعلى قلعته المشيدة فى وسط ضيعته، ويحيط بها عدة مبانى إضافية، من كنيسة وطاحونة وفرن وكير الحداد، وحظائر وأكواخ البؤساء فى صفوف متراصة فى إهمال، وغالباً ما كانت الضيعة مكتفية ذاتياً، وكان ينظر إلى أن طبقته من النبلاء يختلفون تماماً عن أقنان أراضيهم، حتى دماءهم تختلف فى تركيبها عن دماء الأقنان، وكلاً منهم خلق بشكل مناسب لأوضاعه، والتى يجب أن يظل كلاً منهم بها حتى مماته،

يضاف لذلك الجهل والأمية المستشرية ليس بين الطبقات الدنيا فقط ولكن بين نبلاء هذا العصر، يكفى أن نعرف أن شارلمان مؤسس دولة الفرنجة بفرنسا

كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، وكذلك أوتو الكبير[13] مؤسس الأمبراطورية الرومانية المقدسة لم يكن أحسن تعليماً منه، وكذلك نبلاء وسط وغرب أوروبا سيطر على غالبيتهم الأمية، لدرجة عدم قدرة النبلاء قراءة الكتاب المقدس أثناء زيارتهم للأديرة والكنائس، الأمر الذى أسقط الجميع تحت هيمنة ما يقال لهم من رجال الكنيسة ،

وأدى ضعف الحكومات المركزية إلى تقسيم جميع أراضى وسط وغرب أوروبا إلى إقطاعيات، أدى كثرة الطامحين والمغامرين إلى كثرة الإقتتال وإقتضام أجزاء من هذه المقاطعات، الأمر الذى أدى إلى صغر مساحات نسبة كبيرة من هذه الإقطاعيات، لدرجة إنحدار عدد كبير منها لمساحات هزيلة لا تتجاوز بضعة هكتارات، حتى تحولت أوروبا كرقعة شطرنج، وتحولت هذه الإقطاعيات لدول داخل الدولة، يتمتع سيد كل إقطاعية بسلطات لا محدودة أستمدها بطغيان سيفه، فله فرض ما يحلوا له من الضرائب، وإعلان الحرب على من يشاء من الإقطاعيين الأخريين، وعندما لم تعد تكفى موارد الأقطاعيات لتغطية تكاليف حياة النبلاء المترفة أستداروا إلى أراضى بعضهم البعض ليسرقوا منها ما قد يشبع شرههم اللامتناهى للأموال، الذى لم يستطيع هؤلاء الفقراء سد هذه الإحتياجات الشرهة، ليحاول النبلاء البحث عن المزيد من الأراضى التى من الممكن أن توفر لهم متطلبات رفاهيتهم، فى وقت كانت الأرض الزراعية هى الأساس الوحيد للجاه والثروة، حتى كانت هناك أحد النصوص القانونية الفرنسية فى ذلك الوقت تقول "لا يوجد لورد بدون أرض، ولا توجد أرض بدون لورد"

ليصطدموا بواقع محدودية الأراضى الزراعية فى الغرب، وقلة الأيدى العاملة المجانية بسبب فرار الأقنان من أراضيهم، ليعمل النبلاء تفكيرهم فى أى طرق أخرى لتأمين أحتياجاتهم المالية المتنامية، لتصبح ممتلكات النبلاء الصغار والمتوسطين عرضة لنهب سيوف كبار النبلاء،

لتصبح المقاطعات تحت سيطرة الأرستقراطيين المشاغبين المعادين للمركزية الملكية، ويستمد هؤلاء الأرستقراطيون ثرواتهم ووضعهم المميز من خلال السيطرة على الأراضى الزراعية الشحيحة ورسخت هذه الأوضاع بالقيادة

[13] الدوق أوتو السكسونى، دوق بألمانيا تم أختياره من قبل زملاءه الدوقات ملكاً على ألمانيا عام 936م وفى عام 955م هزم القبائل المجرية فيعلنه البابا يوحنا الثانى عشر أمبراطور الدولة الرومانية الغربية المقدسة،

فى الحرب، الأمر الذى جعل الحرب كالهواء بالنسبة لهم، فالسلام لديهم يعنى البطالة والفقر،

كما كان تعدد الأنظمة السياسية عائقاً أمام تطور التجارة، فكان على التجار أن تدفع ضرائب وحق مرورها عند كل حدود إقطاعية تجتازها، هذا إذا نجوا من النبلاء قاطعى الطريق، ويضاف لذلك عدم توافر النقود، الأمر الذى أحال هذه الكيانات الإقطاعية إلى شكل إكتفائى، الأمر الذى عطل تطور الأنتاج الكمى لهذه الإقطاعيات،

حتى أتخذ الفلاحون مظاهر الإحتجاج وأن كان سلبياً، بينما تمارس المؤسسات السياسية والدينية نفوذها للحفاظ على هذا الوضع وإستمراره، فقد شهد بدايات القرن الحادى عشر فرار جماعى للأقنان من أراضى أسيادهم، وكان النزوح يشمل قرى بأكملها يتركها فلاحيها إلى حيث تقودهم أقدامهم، هرباً من إبتزاز السادة الإقطاعيين، ومن الجوع الضارى الزاحف خلفهم والأوبئة الفتاكة التى تطاردهم بإلحاح، ومن البؤس الذى نشأوا فى كنفه، مما جعل من أوروبا ساحة كبيرة من الحروب الداخلية المستمرة، فى الوقت الذى تعانى أوروبا من سوء مواسم الحصاد، التى قضت عليها هذه الحروب، حتى أطلت المجاعة بوجهها البشع على كافة أراضيها، كالمجاعة التى ضربت اللورين بفرنسا عام 1095م، مما أدى إلى إنتشار عادة أكل لحوم البشر، زد على ذلك الكوارث الطبيعية التى فتكت بمناطق واسعة من القارة العجوز منذ بدايات القرن الحادى عشر، كالوباء الذى فتك بأوروبا 1094م، فى الوقت الذى لم يكن بأوروبا إلا عدد محدود من المدن الصغيرة، التى لم تستطع إستيعاب هذه الهجرات، حتى أصبحت هذه المدن الفقيرة بمثابة مخزن بشرى طارد لسكانه وينتظر أى حافز ليدفع بمخزونه البشرى إلى حيث ما يمسك أوده ،

كل هذه العذابات تحالفت ضد الأقنان، زد عليهم الجهل والأمية الذان سيطرا على هذه الطبقة التعيسة، كل هذا ألقى هؤلاء فى أحضان هوس دينى جعلهم يبحثون عن الخلاص من هذه الحياة الغير محتملة، وجد هذا الهوس الدينى مجال رحب للأنتشار، فقد هرب إلى كنفه الناس من واقعهم المرير، الذى تفشت فيه البؤس والقهر، وكان هذا الأنتشار دون أدنى عناء بين أناس محصولهم الدينى والتعليمى محدود أو معدوم تماماً، وقام فى أوروبا بين هذه

الطبقة جو مفعم بالإنقطاع عن خيرات الحياة ـ المفتقرين لها أصلاً ـ والتكفير عن الذنوب بالإيلام الجسدى، حتى أصبحت الحملات الصليبية منفذ طبيعى لتصريف الزيادة السكانية التى لم تستطع أوروبا إستيعابها، فى الوقت الذى لم تفرض الحروب الصليبية أى قيود إقطاعية على القن بما كان يعنى إنطلاقه لفضاء الحرية والهروب من وضع القنية والعبودية ،

حتى أكتظت أوروبا بأشتات إجتماعية متباينة كلاً منهم له صراعاً مع الأخر، وبعضهم يرفض الوضع القائم رفضاً مطلقاً، ولا يدرى تماماً ما يريد، والبعض الأخر يريد أن يبقى ما جاء من مؤسسات وأساليب الحكم،

يضاف لذلك النظام الظالم للميراث بالغرب والذى يخص أكبر الأبناء بكل التركة مع ترك باقي الأبناء يجرون إذيال الفقر ولا يملكون إلا ما يجود به أخيهم عليهم، مما أنتج شريحة كبيرة من الفرسان بدون أراضى والنبلاء الذين لم يسعدهم الحظ، ويتقلبون بين أعطاف الفقر وليس لهم فرصة لإنتشالهم من هوة الأملاق إلا الأرتباط بوريثة ثرية، بينما ألتجأ العديد منهم للعنف المسلح لحل مشاكلهم سواء بقطع الطرق واللصوصية أو نهب القرى النائية، أو حتى الأديرة والكنائس المترعة بالخيرات، التى لم يتورع الفرسان المنحطون عن مهاجمتها، بل حتى الفرسان المتدينون نهبوا الأديرة والكنائس ويسرعون لنوال الغفران من كنائس أخرى مقابل بعض المنهوبات، ويتناحر أمراء البلاد واحدهم مع الأخر فى حروب لا تنقطع[14]، ليسقط حتى النبلاء فى دوامات من المشاكل المهلكة، فقر إقطاعياتهم بسبب بوار أراضيهم، وهروب الفلاحين، والمجاعات والأوبئة التى قضت على نسبة معتبرة من الأيدى العاملة، والنزاعات والحروب الداخلية، وهجمات الفرسان المعدمين،

المجتمع الأوروبى بغطرسته وبغضه لكل ما هو غير كاثوليكى، وزيادة إتجاة معاداة الأجانب فى الثقافة الغربية، والهوس الدينى الذى سيطر عليه، بسبب الإعتقاد الجازم الذى إنتشر بين جنبات أوروبا بإن نهاية العالم ستكون ببداية الألفية الجديدة (1100م)، حتى أخذت الحرب شكل من أعمال التدين، علاوة على إعتبار الحرب مهنة ذات عائد مجزى، كان على أتم الإستعداد لتلبية دعوة الحرب ضد المسلمين بما تقدمه من حل مشاكله فى الدنيا والخلاص فى الأخرة، مما جعل الإستعدادات لمشاركة أحد فى الحملة الصليبية مغلفة

[14] تاريخ الحملة إلى القدس ص31

بشعور بالتوبة، بعد أن أخذت التوبة أشكال مختلفة، من الإمتناع عن ممارسة الجنس، أو التقشف فى الطعام، أو حتى تعذيب النفس،

كما فرضت الكنيسة حج كبير للتكفير عن الذنوب الكبيرة كطقس مستحدث، هذا الحج الكبير كان وجهته أربع مزارات مقدسة، أولهم روما، ثم مزار القديس يعقوب فى كمبستيلا بأسبانيا، ثم القسطنطينية، ورابعتهم وأهمهم بيت المقدس، التى منحها البابا أربان مستوى التوبة الكاملة التى تمحو جميع الذنوب، حتى أصبحت زيارة الأماكن المقدسة أكثر الكفارات شيوعاً، وتحولت ممارسة الحج من عمل فردى إلى طقس جماعى، فى مجتمع شعر أفراده أنهم محبوسون فى عالم من الرذيلة ليس لهم منها خلاص،

وغدا الذهاب فى رحلة من رحلات الحج إلى أحد الأماكن المقدسة شيئاً كثير الحدوث منذ القرن الثالث الميلادى فصاعداً، وتصارعت المدن فى الغرب للحصول على الذخائر المقدسة من الشرق حتى بأساليب غير أخلاقية،

حتى أصبحت للرحلات المقدسة والحج، توبة تضاهى الصيام والإيذاء البدنى للنفس، والقيام بالحج لبيت المقدس للفوز بالغفران ظهر كعمل جماعى قبل أندلاع الصليبيات بوقت ليس بالقصير، فخلال القرن الخامس الميلادى أستطاع القديس ماركيانوس إقناع البغايا التائبات بقيامهن بالحج للتكفير عن خطاياهن،

وفى بعض الأحيان أصبحت رحلة الحج أقرب ما تكون من عملية نفى للتخلص من العناصر القاتلة وإبعادها للشرق، وأصبحت رحلة الحج القاسم المشترك خلال سيّر القديسين، بل الحج هو النقطة الفاصلة لتحويل الرجل العادى إلى قديس، واصبح الحج الطريق المختصر لكل من أراد تتويج رأسه بهالة الإجلال والسمعة الرائعة للحجاج، الأمر الذى أضفى على الرحلة للقدس جاذبية كبيرة، حتى أنطلق عام 1065م من ألمانيا رحلة حج جماعى بلغ المشتركين بها ستة آلاف شخص وفى رواية أخرى أثنى عشر ألف شخص، وذلك قبيل دعوة البابا أوربان للحروب الصليبية ،

وأدى زيادة المجاعات والأوبئة فى القرن العاشر وإنتشار الأمية فى أوروبا، إلى شعور الأوربيون بقرب يوم الدينونة[15]، وإقتراب موعد فناء الأرض

[15] نهاية العالم

وظهور السيد المسيح، مما شجع العديد للذهاب إلى الأرض التى شهدت ميلاد السيد المسيح لإنتظار نهاية الأرض.

كما لعب دير كلونى والذى أُسس أوائل القرن العاشر، دوراً كبيراً فى نمو حركة زيارة بيت المقدس بسبب ثراء الدير وتنظيماته الإدارية الممتازة، وشبكة رجاله المنبثين فى جميع نواحى أوروبا، وأستغل الدير كافة إمكانياته فى تنظيم رحلات زيارة دورية لبيت المقدس، حتى أنشأ الدير العديد من الفنادق والنُزُل على الطريق للقدس، وكما قام الدير بتنظيم الرحلات الجماعية وتجميع الفصائل والجماعات لها،

وقد حدث تطور هائل فى أوروبا العصور الوسطى، بإنخراط الهنغاريون (المجر) فى المسيحية عام 975م، وإحراز الأمبراطور البيزنطى باسيل الثانى (جزار البلغار) نصراً حاسماً على البلغاريين الأمر الذى فرض كامل السيطرة البيزنطية على البلقان، مما مهد الطريق البرى وجعله أكثر أمناً للراغبين فى التوجه شرقاً، الأمر الذى زاد فى أعداد الأوروبيين القادمين لبيت المقدس، وما أن بدء القرن الحادى عشر الميلادى ـ الذى شهد ختامه بداية الحروب الصليبية ـ حتى تضخمت ظاهرة الحج لفلسطين،

وقد أعتبر دير كلونى أن زيارة الأماكن المقدسة من الفرائض الواجب أدائها، وكما عملت الهيئة الديرية الكلونية على زيادة النفوذ الباباوى ومساعدة الباباوات على إحكام سيطرتهم أمام السلطة الدنيوية سواء ملكية أو إقطاعية، ولعب التحسن النسبى لشبكة الطرق والمواصلات التى شهدتها أوروبا القرن الحادى عشر، علاوة على تنامى النشاط البحرى للجمهوريات الإيطالية على قدرة عدداً معتبراً من الأوروبيين على التوجه إلى الشرق، الأمر الذى أنسحب على سهولة تحريك الجيوش فى الإتجاه شرقاً،

حتى جاءت الفرصة الكبرى فى أرض الأحلام، الشرق الذى من الممكن أن يجدوا فيه ما حرموا منه بوطنهم، ثم هناك الفرسان المكونين لجيوش ومليشيات النبلاء وكانت الحرب هى الطريق الوحيد الذى يحفظ لهم مكانتهم وتوفر لهم أسباب معيشتهم، هذا وإلا ليس لهم مكان بين الطبقة الأرستقراطية، ثم الأمل الذى كان يراودهم فى أمكانية تحقيق إمارة فى الشرق، فالشرق كما نُقل لهم أرض تفيض عسل وخمر، وإن كنا لن ننفى الوازع الدينى عن

البعض فى القيام بالحروب الصليبية وإن كان وازع مغلف بالمصلحة الدنيوية أولاً،

لجأ البابا أوربان للفرنسيين إعتماداً على العلاقات الممتازة بين الباباوية والمملكة الفرنسية منذ أيام بيبين القصير أبن شارلمان 751م، ولأن أوربان فرنسى الأصل أيضاً، ينتمى لأسرة نبيلة متوسطة من أقليم شامبانى، وكذلك سيطرة الرغبة فى الحرب وهوس السلب والنهب على فرنسا، والصراع المرير الدائر بين الملكية والأسقفية والإقطاعية، مما خلق فوضى دموية، فقد سيطر العنف على مناحى الحياة فى أوروبا العصور الوسطى بشكلاً عام، لدرجة لجوء السلطة القضائية لفض المنازعات والمحاكمات عن طريق النزال والقتال أو المرور بمحن مؤلمة، كالإمساك بقطع حديدية ساخنة لدرجة الإحمرار والسير بها لمسافة تسعة أقدام، أو إخراج قطع حجرية من إناء به ماء ساخن لدرجة الغليان، أو المرور وسط النيران، على أن تثبت التهمة إذا لم يلتأم الجرح فى مدة ثلاثة أيام أو أصيب بتقيح، وأصبح من الشائع تعذيب من يقضى عليه بالإعدام وذلك ببتر أعضاءه حتى الموت ،

وقد شهدت أوروبا فى القرن الرابع زيادة إنسياح القبائل الجرمانية من شمال أوروبا الفقير إلى جوف الأمبراطورية الرومانية عبر حدودها الواهنة، فى هجرات مسلحة أقرب ما تكون للغزو، حتى دمر فرسان القوط الغربيين بزعامة قائدهم الشهيرألريك فرق المشاة الرومانية الثقيلة وأستولوا على روما 410م قبل أن يكملوا طريقهم إلى الأندلس ويؤسسوا دولة القوط الغربيين والتى أسقطها الفتح الإسلامى للأندلس،

ويأتى بعدهم الوندال شديدو القسوة، ويجتاحوا بلاد الغال والأندلس قبل أن يعبروا إلى أفريقية ويؤسسوا دولة لهم على الساحل الأفريقى بجوار أطلال مدينة قرطاجة[16]، ويلحق بهم الفرنجة والذين أستقروا فى ما يعرف ببلجيكا، قبل أن يسيطروا على بلاد الغال جميعا بزعامة كلوفس 481م مؤسس فرنسا، ثم يهاجر السكسون من الدنمارك ويخربوا سواحل الجزيرة البريطانيا ويؤسسوا لهم مستعمرات إستيطانية بها،

[16] مدينة أسسها الفينقيون وحاربت روما بما عرف بالحروب الأيونية بزعامة قائدهم الشهير هانيبال وتم تدميرها عقب هزيمته على يد القوات الرومانية،

وترادفت موجات الهجرات الجـرمانية بما تحمله هذه القبائل من سمات حربية مميزة، حتى أضطر الأمبراطور قسطنطين إلى نقل عاصمة أمبراطوريته إلى القسطنطينية، وسقوط الأمبراطورية الرومانية الغربية تحت ضرباتهم، مما أدى إلى سيطرة القبائل الجـرمانية والفـرنجية على غـرب ووسط أوروبا وتغيير التركيبة السكانية بها وإحلال العناصر الجرمانية محل السكان الأصليين، هذه القبائل التى لا تمتهن إلا القتال، وعانت أوروبا من أولاد عمومتهم الفايكنج طوال سنوات عديدة ،

وقد أخذت الأمبراطورية الكارلنجية التى أسسها شارلمان فى التوسع حتى أستولت على بلاد غالة (فرنسا) تماماً، بل وسعى خلفاء شارلمان لوراثة الأمبراطورية الرومانية بالغرب مما أنشأ تحالف بين البابـاوية وبيبين القصير خليفة شارلمان، فى الوقت الذى أستخدمت البابـاوية العنف فى الدفاع عن مصالحها،

وقد تعلم الغرب القتال من أعلى صهوات الجياد من العرب، فخلال معركة بلاط الشهداء 732م ذهب شارلمان لميدان القتال ممتطياً صهوة جواده ثم ترجل ليقاتل العرب، ثم يمتطى جواده ثانية عائداً إلى بلاطه أسير إعجابه بالفرسان العرب وفعاليتهم القتالية،

كل هذا خلق مجتمع عسكرى ونظم عسكرية أفرزت مقاتلين يفوق عددهم ما يحتاجهم هذا المجتمع أثناء السلم، فالقبائل الجـرمانية تمنح فرسانها كافة الأمتيازات بينما باقى أفرادها مجرد خدم، وحتى عندما أعتنقت المسيحية إستعارت كلاسيكيات الحرب الجرمانية وأدخلتها للمسيحية، فأصبحت "فالالهالا"[17] هى الجنة،

وينقسم هؤلاء المقاتلون إلى عصابات لكل منها زعيم يحتمى بقلعة هو وفرسانه، فقد شهدت أوروبا الجماعات الحربية مبكراً إذ إعتاد شباب القبائل الجرمانية تسليم أنفسهم لقيادة محارب فذ يعجبون به ليقاتلوا تحت أمرته، ليأخذ الرومان هذا النظام ويجندون الشباب الجرمانى تحت قيادتهم، ويُعرف قادة تلك الجماعات بالكونتات[18] أو الدوقات[19] ليصبح هذا النظام بعد ذلك

17 دار النعيم التى يذهب إليها القتلى فى الحروب فى الإعتقاد الوثنى للقبائل الجرمانية
18 كونت بمعنى رفيق الحرب باللاتينية
19 دوق بمعنى قائد باللاتينية

العمود الفقرى لدولة شارلمان، بعد ظهور نمط جديد من الروابط الإجتماعية بين السيد الإقطاعى وإفصاله[20]، وتم تكليف هؤلاء الدوقات والكونتات بمهام دفاعية وإنشاء إدارات الحكم المحلية، ومهام القضاء وفض المنازعات تبعاً للعرف المحلى، وشيئاً فشيئاً تزاد قوة الدوقات والكونتات بنفس وتيرة إزدياد ضعف الملوك،

مما أفرز كيانات سياسية صغيرة تحت سيادة سلالات أرستقراطية، تستمد ثروتها وسلطتها من سيطرتها على الأراضى الزراعية، فى ظل سيادة الإقتصاد الطبيعى على أوروبا قبل زيوع إستخدام النقود، مما دفعها للعمل العسكرى المستمر سواء للدفاع عن أراضيها أو الهجوم وسلب أراضى بعضها البعض ،

وقد بحثت طبقة النبلاء عن هويتها ومثل عليا لتؤكد إعتبارها طبقة مميزة وعلى رأس الهرم الإجتماعى فى مجتمع العصور الوسطى الأوروبى، فلم تجد إلا القتال والحرب للحفاظ على هذه الهوية، فهى وأن لم تمارس الحرب كل يوم، إلا إنها تستعد لها كل ساعة،

حتى أصبح أعضاء هذه الطبقة النبيلة هم القادرون وحدهم على القتال من أعلى صهوات الجياد بأوروبا، ولكل فارس تابع ليعتنى بجواده وسلاحه، ويمتطى التابع فرساً أيضاً ،

نظام الأفصال هو أساس المجتمع الغربى الجديد، فهو إرتباط مادى بين الأمير صاحب الإقطاع، والفارس الذى يتعيّش من مهنة القتال ويتقاضى راتب من الأمير لقاء القتال إلى جانبه كفارس بكامل معداته الحربية، إلى جانب بعض الواجبات الأخرى مثل المعونة المالية التى يقدمها الفصل لسيده إذا ما تم أسره، وضيافة اللورد وأفصاله وتقديم الطعام المناسب لهم، وكذلك المساهمة فى تسليح أبن سيده الأكبر عند تدشينه فارساً، والمساهمة فى تكاليف تزويج بنت سيده الكبرى، ومساعدة سيده فى البلاط الملكى، ومجالس الحكم والسياسة، والقيام بحراسة قصر سيده فى أوقات معينة بالتبادل مع الأفصال الأخرين التابعين لسيده، وكما أن الأعراف والقوانين الإقطاعية تجرم تخلى التابع الإقطاعى عن الدفاع عن سيده أثناء المعركة وتعتبر ذلك جريمة لا يمكن الصفح عنها، وينال الفصل فى مقابل ذلك الحماية التى

[20] تابعيه من الفرسان المرتبطين معه بقسم الولاء

يسبغها له سيده بجوار العطاء المادى الجزيل، مما أدى إلى العسكرة المطلقة للمجتمع الأوروبى ،

وأخذ هؤلاء المقاتلون فى البحث عن أعداء ليقاتلوهم، ليوجهوا نشاطهم نحو المزارعين البائسين من مواطنيهم، الأمر الذى أدى إلى ندرة الضحايا المناسبين للقتل عن ذى قبل، ويرفض المقاتلون التخلى عن الحياة الراقية التى كانوا يحيونها فى مجتمعهم الأوروبى الفقير، ويبحث هؤلاء المزارعون التعساء عن الأمان والحماية، فيجدوا هذه الحماية لدى أصحاب القلاع الذين يسرقونهم، الأمر الذى أوقع الفلاحين تحت أعباء إبتزازية متزايدة وغير محتملة من الإيجارات والألتزامات المالية المرهقة، وتزدهر طبقة الإقطاع الحربية ويزداد أعداد المقاتلين بسبب الصراعات الدموية التى تنشأ بين هذه العصابات الإقطاعية، مما يشعل نيران الحروب الأهلية بشكل مستمر غطى غرب ووسط أوروبا، وتزداد قوة الإقطاع على حساب قوة الملك الفرنسى الذى يفقد السيطرة على العديد من المساحات من أراضى بلاده، لدرجة تجنب البابا أربان أثناء دعوته للحرب الصليبية بفرنسا المرور بالأراضى الخاضعة للملك الفرنسى بعد أصدار البابا قرار بالحرمان على ملك فرنسا بتهمة الزنا،

وتحاول البابوية الحد من هذه الصراعات التى تطول الإديرة والكنائس، فالكثير من رجال الدين أصبحوا أسياد لإقطاعيات عديدة ولديهم فرسان فى خدمتهم، حتى أصبحت الكنيسة أكبر سيد إقطاعى بأوروبا بمساحات أراضيها الشاسعة، كما أدت هجمات المسلمين بجنوب أوروبا، وهجمات الفايكنج بشمال أوروبا إلى تطور النظم والأداء العسكرى الأوروبى،

وسيطر التقليد المسيحى الذى يحرم القتال وسفك الدماء، فالمسيحية أنما تدعوا للسلام والمحبة، ولكن الطبيعة البشرية فرضت نشوب الحروب لعجز البشر حل منازعاتهم بدون الإلتجاء لحكم السلاح، الأمر الذى وضع النبلاء سادة الحروب الغربيين فى دائرة الأثم والشعور بالذنب، الأمر الذى دفعهم للأعتراف وطلب الغفران الكنسى بشكل مستمر، الغفران الذى سعوا له بمنح الأديرة والكنائس بسخاء، حيث كان شراء الغفران والتوبة أيسر من الإلتزام بالفضيلة، فى الوقت الذى لم يستطيعوا الإستغناء عن مهنتهم ومهنة أسلافهم، القتال، هذه المهنة التى وفرت لهم حياتهم الرغدة ووجودهم على رأس الهرم الإجتماعى الأوروبى، فكان يجب إضفاء شرعية كنسية على النشاط الحربى،

ولن يكون هناك أفضل من القتال بمباركة باباوية كنسية، الأمر الذى يضفى ستار دينى لإرضاء نزعتهم العدوانية، وهذا ما وفرته الحروب الصليبية والحروب التى إديرت بأمر من البابا، مما يؤدى لوضعية إجتماعية أفضل لطبقة المحاربين، وأدى إلى تغيير النظرة السلبية لطبقتهم، وذلك بوصفهم الجديد كمحاربيين فى الجيش المقدس الحائز على مباركة البابا والمجتمع ،

وشهدت أوروبا القرن الحادى عشر حركة إصلاح كنسية كبرى عرفت بالحركة الكلونية نسبة لدير كلونى بفرنسا، وتهدف هذه الحركة إلى الإرتقاء بأحوال رجال الدين، ونشر العفة والتقوى فى الأديرة، بعد التدهور الذى شهدته الأديرة البندكتية[21]، وتطورت حركة الإصلاح إلى العمل على إصلاح الكنيسة وزيادة سلطة الباباوية بشكل عام، لدرجة أن البابا ليو التاسع (1048- 1054م) أعلن أن الباباوية هيئة حاكمة عالمية ذات سلطات مطلقة وإستقلال تام بتفويض إلهى، بما يعنى التخلص من السلطة الزمنية، وفرض السلطة الباباوية ليس على أوروبا فقط، بل على العالم أجمع، ونشر الكثلكة حول العالم، وحق الباباوية فى خلع وتثبيت الملوك، الأمر الذى ضخ قوة كبيرة فى شرايين الباباوية، التى أصبحت تشعر بقوة تفوق قوة الأباطرة والملوك، مما فرض البحث عن منفذ تنفس به قوتها المتدفقة الجديدة، وإن أستشعرت خطورة تنفيس هذه الطاقة فى قتال بأوروبا، الأمر الذى حدا بها توجيه هذه القوة للشرق، والنظر للحروب التى تشن بمباركة باباوية أنها طريق للخلاص والغفران، وقد حاول الباباوات الإستفادة من عسكرة المجتمع الأوروبى، وتسلط النزعة الحربية على المجتمع الإقطاعى، وتمجيد الفارس، فأعلن البابا ليو الرابع والبابا حنا الثامن أن كل من يقتل فى حرب مقدسة فهو شهيد ومثواه الجنة ،

وقد فرضت الباباوية خلال حركة الإصلاح الكلونية هدنة إجبارية تحت أسم حركة سلام الرب فى أيام معينة كأعياد القديسين وأيام الآحاد من مساء السبت وحتى صباح الأثنين، وأقسم نبلاء فرنسا عام 1016م على عدم إجبار رجال الدين والفلاحين على الإنخراط بجيوشهم أثناء صراعاتهم المتكررة، وألا يغيروا على محاصيلهم أو دوابهم، ولكن اللوردات الجشعين ما كانوا سيلتزمون بقسمهم، وتبحث الباباوية عن ميدان قتال لشغل الأمراء المتعجرفين المشاغبين خارج أوروبا لتجد ضالتها فى الحروب الصليبية،

[21] هيئة ديرية أسسها القديس بندكت (480-543م) وشجع على حياة التنسك والزهد فى الدنيا

بتوجيه عدوان فرسان الغرب خارج قارتهم المترنحة، وإن سبق ذلك عدة حروب حظت بمباركة الباباوية وراية القديس بطرس، التى أُرسلت لروجر كونت صقلية أثناء قتاله لطرد المسلمين من صقلية، وذهبت أيضاً للأندلس مصحوبة بغفران كنسى لجميع المحاربين عن خطاياهم، مع منحهم ألقاب أكثر قداسة مثل جند المسيح وجند القديس بطرس، ليس هذا فقط بل أيدت الباباوية شن حرب على المسيحين المخالفين للعقيدة الكاثوليكية ،

فقد سبق للعديد من فرسان الغرب الإشتراك بالقتال ضد المسلمين، سواء فى الأندلس عندما شهد سقوط طليطلة (1085م) فرسان فرنسا وألمانيا بجوار فرسان قشتالة[22]، نفس الحال خلال الهزيمة الساحقة التى تجرعوها على أيدى المرابطين بمعركة الزلاقة (1086م)، بعد أن أعلن البابا ألكسندر الثانى فى عام 1063م مباركته للقتال ضد المسلمين بالأندلس، ومنحه غفران الكنيسة لكل من يشترك بالقتال هناك وكما سُمح للفرسان بالإحتفاظ بالأراضى التى يتم الإستيلاء عليها بالأندلس وتكوين أمارات إقطاعية خاصة بهم ،

وكذلك الصراع الذى أدارة الفايكنج المتمثلين بالنورماندين للسيطرة على جنوب إيطاليا وصقلية من أيدى المسلمين العرب (1061- 1072م)، أيضاً بمباركة باباوية لـروبرت جيسكارد فى عام 1059م مقابل إعترافه بالباباوية كسيد أعلى له وتعهده بدفع جزية سنوية لها والدفاع عن الباباوات ضد الإمبراطورية البيزنطية، بل لم تنجو إنجلترا من هذه الهجمات الضارية فقد سقطت الجزيرة البريطانية تحت ضغط هجمات النورمانديين 1066م بالمساعدات الباباوية لوليم الفاتح، حتى القراصنة الأيطاليين من بيزا وأمالفى وجنوة عندما هاجموا مدينة المهدية بتونس 1087م وأستولوا عليها بارك البابا فكتور الثالث نهب المدينة الحزينة وأرسل راية القديس بطرس لترفرف فوق رأس القراصنة ومنحهم الغفران عن جميع ذنوبهم العديدة،

كل هذا أجتمع وأدى إلى أول وأضخم موجه إستعمارية أوروبية للشرق، تماما مثل الموجة التى قامت بهجرة ألاف الأوروبيون للعالم الجديد وقضاءهم على سكانه الأصلين مفرزاً للعالم أمريكا وأستراليا وغيرهما وإن أختلفت الدوافع والحجج،

[22] مملكة أسست بشمال الأندلس وأخذت على عاتقها قتال المسلمين لطردهم من الأندلس هى ومملكة ليون وقطلونية وأراجون حتى أتحدت هذه الممالك مكونة مملكة أسبانيا

يضاف لذلك الضعف الذى ضرب أطنابه بدولة السلاجقة بعد موت ألب أرسلان بسبب التنازع والصراع على السلطة ما يجعل مهمة الوصول للشام أيسر وأكثر أماناً

وكما نشطت الدعاية الباباوية منذ زمن طويل لتصوير المعاناة التى يقع الأوروبيين تحت براثنها أثناء رحلة زيارة القدس، وكذلك إدعاء المكابدة التى يكابدها المسيحيين الشرقيين من ظلم الحكام المسلمين، وساهم العديد من رجال الأكليرك الكاثوليكى الذين قاموا بزيارة بيت المقدس فى نشر الفظائع الوهمية التى سقطوا فى دوامتها، سواء أن كان السبب بغضهم للشرق الإسلامى، أو لزيادة هالة القدسية عند تضخيم معاناتهم فى سبيل زيارة الأماكن المقدسة، وقد أستغل مروجوا هذه الشائعات جهل وضعف إطلاع معاصريهم، ففى الوقت الذى لم يعانى مسيحى ويهود الشرق من أدنى أنواع الأضطهاد، ذاقوا الأمرين من اللاتين عندما نجحت الحملة الصليبية الأولى فى فرض سيطرتها على جزء من الشرق الإسلامى، فبينما كان المسيحيون الشرقيون يُسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية بمنتهى الحرية، حاول الفرنج فرض الكثلكة عليهم ،

حمل أودو لاجير (البابا أوربان) الذى ورث مجهودات سلفه جريجوريوس السابع، كل هذا إلى بلدة فى فرنسا تسمى كليرمونت حيث عقد مؤتمر فى الفترة من 18 إلى 28 نوفمبر 1095م فى حقل مجاور لدير بحضور ثلاثمائة وعشرة من رجال الدين اللاتين[23]، بعد قيام الملك فيليب الأول ملك فرنسا بمنع أساقفته من حضور المجْمع، وأن كان يستحيل معرفة خطاب البابا على وجه اليقين، لأن شهود العيان التى كتبوا هذا الخطاب قاموا بكتابته بعد نجاح الحملة الأولى، مما صبغ كتاباتهم بالنتائج التى حُققت، وأن كان هناك شبه إجماع على ان البابا ـ الذى عمل ما فى وسعه لإلهاب حماس مستمعيه ومس وجدانهم ـ بدء خطابه بالتحذير من التقدم الإسلامى فى أوروبا شارحاً إن الدولة البيزنطية تستغيث ويجب أغاثتها، حيث تقدم المسلمون داخل الأراضى الرومانية حتى وصلوا إلى البسفور[24]، مركزاً حديثه عن القدس أقدس المزارات المسيحية، وبأسلوب درامى عاطفى رسم صورة بالغة الكأبة عن ما يعانيه الحجاج الغربيين لزيارة هذه الأماكن، مطلقاً عليهم جنود المسيح

[23] تاريخ الحملة إلى القدس ص31
[24] تاريخ الحملة إلى القدس ص36

وداعياً الجميع فرسان ومشاة، أغنياء وفقراء، داعياً آياهم عن التوقف عن ذبح بعضهم البعض وتخصيص هذا الذبح لرقاب الشرقيين فى حـرب مقدسة، ولزيادة مقدار المقت تجاه المسلمين أخذ يصب عليهم نعوتاً مثل "جنس يتسم بالحقارة والإنحطاط، وتستعبده الشياطين والعفاريت" [25]، وناشد البابا الفرسان الأقوياء بإسراع الخطى لإنقاذ أخوانهم من ما يعانوه، ضامناً لهم الغفران والفردوس لمن يُقتل فى أثناء الحرب، "كل من يذهب إلى هناك سوف تغفر له خطاياه إذا ما واجه حتفه زاحفاً فى البر أو عابراً البحر، أو مقاتلاً الكفار"[26]، وحماية الكنيسة لممتلكات المشاركين فيها حتى يعودوا لأوطانهم، مع العفو عن الجزاءات الدنيوية لمـن شارك بالحرب المقدسة[27]، داعياً من كانوا لصوصاً أن يكونوا جنود المسيح[28] مع جعل كفارة أى مخرب فى الأرض أن يظل جندياً فى جيوش الله سواء فى بيت المقدس أو فى الأندلس لمدة عام، وإلغاء أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم إذا ذهب للحرب المقدسة، لم ينسى أن يذكـرهم بخيرات الشرق الذى تفيض اراضيه بالعسل واللبن، وأن بلادهم بأوروبا التى تكتنفها الجبال والبحار أضيق من أن تستوعب أعدادهم الضخمة، وإنها لا تكاد تمدهم بما يكفيهم من الغذاء، وإن الحياة بأوروبا أصبحت تعيسة كثيرة الشرور، الأمر الذى دفعهم لقتال بعضهم البعض، بينما أرض كنعان حسبما جاء فى الكتاب المقدس أرضاً تفيض عسلاً ولبناً" والأهم هى الحرية التى سينالها من سيقرر الإلتحاق بجيش الصليبيين من أقنان الأراضى الإقطاعية، ولا يستطيع سيدهم أن يمنع من يريد اللحاق بالجيش الذاهب للقتل المقدس، مطالباً أياهم بالأستعداد للسفر عند حلول فصل الصيف، ما جعل الحشود تهتف "الرب يريدها"

وحاول البابا قصر المشاركة فى الحملة على المقاتلين فقط، سواء أكانوا فرساناً من النبلاء أم مشاة من عامة الشعب، ولكنه فشل فى إيقاف الباحثين عن الأمتيازات التى وعدهم به، فالهالة التى وضعها البابا على رؤوس المشاركين فى الحملة المقدسة والدعوة للحرب التى تم تدعيمها بأغرى وسائل الدعاية والأكاذيب المختلفة والخطب الملتهبة، كانت أقوى من محاولاته،

---

[25] تاريخ الحملة إلى القدس ص36

[26] تاريخ الحملة إلى القدس ص36

[27] توالت منح الغفران للذاهبين للقدس، ففى عام 516هـ/1123م تم عقد مجمع لاتيران الذى نص على منح الذين يذهبون إلى بيت المقدس والذين يقدمون العون والذين يدافعون عن المسيحيين غفران جميع معاصيهم، وحماية ممتلكاتهم،

[28] تاريخ الحملة إلى القدس ص36

وأُتخم الجيش بالألاف من غير اللائقين للحـرب، مما أدى إلى تفاقم مشاكل التموين والإعاشة، وخلق مشاكل جمة للنظام والإنضباط ،

هل يوجد أفضل من هذا؟ أو أكثر إغراءاً؟ فقد دعى البابا النبلاء والفرسان قاطعى الطرق، محترفى اللصوصية، إلى إشباع ميلهم للقتال، وجشعهم للمال، بحرب مقدسة ـ وأن كان الكثير مما حدث فيها كان بعيداً جداً عن القداسة ـ فى أرض بكر تسيل لبناً وعسلاً كما وصفها لهم البابا، التى صورها لهم كأنها الجنة الأرضية، علاوة على هذا سيحظون بالغفران والخلاص والجنة فى الأخرة، فهم نالوا الثراء الدنيوى والثواب الأخروى، فقد أمتلكت الحرب الصليبية جاذبية شديدة، فالفارس الأوروبى الإقطاعى فرضت عليه الفروسية أن يستمد حياته من القتال، فهو ليس له مصدر دخل إلا بالحرب، وحياته المرفهة المتسلطة لا ينالها إلا بالقتال، فأتت الحركة الصليبية لتوجيه حاجته للقتال وجهة ينال بها ما لا يناله بأوروبا، تحت إشراف الكنيسة ومباركتها، حتى أصبح القتل بدون هدف أو داع إلا إرضاء شهواته الدموية، كل هذا بأسم التقوى والورع، فالفارس الغربى الأن يستطيع القيام بالقتل طوال نهاره وهو على ثقة أنه بهذا على الطريق الصحيح للجنة، بعد أن وفرت له الحرب المقدسة وسيلة رابحة للتوبة، وأطلقت داخلة غرائز الطمع المخيفة، وأرضت جشعه البالغ إلى الغنائم، فالبابا أبن طبقة النبلاء هو أدرى كيف يلعب على عواطفها الجشعة وكيف يستفزها،

حتى تحول مجرمى الأمس إلى جنود الكنيسة، كما لعب التدين العاطفى والهـوس الدينى المسيطر على وجدان الفارس والنابع من تعصب مقيت، دوراً كبير فى الحماس الأعمى الدافع للكثير للإشتراك فى الزحف على الشرق، مما أضطرم نفوسهم برغبة جامحة لقتل الكثير من المسلمين،

ولتخلق طبقة جديدة تمتلك الكثير من العنصرية ضد كل ما هو غير صليبى،

حتى من أنتوى الإنخراط فى سلك الرهبنة سيجد أن الحروب الصليبية أكثر صخباً من حياة الدير ولها نفس الغفران، حتى أصبح ينظر للحملات الصليبية كوسيلة لتكفير الذنوب، والمشاق والمتاعب والأخطار فى الحملة كتسديد لديون من يستحقون عقاب الرب جزاء خطاياهم، وكعقاب دنيوى يمنحهم الغفران، كما الإنخراط فى الحملة خير وسيلة لهروب المديونين من دائنيهم، فى الوقت الذى أخذ القضاة فى تخير المجرمين بين السجن أو الشرق،

وكرر أوربان هذا المؤتمر بالعديد من مدن فرنسا وإيطاليا وبث دعاته فى كافة أرجاء أوروبا يلهبون آذان مستمعيهم بحماسة مسعورة، فطوال تسعة أشهر زار البابا المتحمس مدن تور ومنبيلية وتولوز وبوردو ونيميز، ولم ينسى أوربان تأمين مواصلات حملته البحرية فخاطب جمهورية جنوا التى خصصت تحت تصرف أوربان أثنى عشر قطعة بحرية،

فالمدن الإيطالية التجارية رأت فى الدعوة للزحف ضد الشرق فرصة ذهبية لزيادة أرباحها التجارية وتدعيم نفوذها فى حوض البحر المتوسط بسيطرتها على موانئه الجنوبية والشرقية، الأمر الذى يكفل لها التحكم فى التجارة الشرقية ،

وعندما تلاقى كل هذا، أستجاب الكثيرون بطريقة هستيرية، وكأن مستهم عصا سحرية، وكانت النتيجة سيل من طلبات الأنضمام للحملة ما فاق توقعات حتى أوربان نفسه، وكان أول المتطوعين أديمار دى مونتى أسقف لوبوى[29] والذى سيكون له القيادة الروحية لحملة الأمراء، وتم تثبيت صليب من القماش الأحمر على كتف معطف المتطوع، ومع أن أوربان كان يريد للحملة أن تكون تحت السيطرة المباشرة للكنيسة ولكنه كان يدرك ضرورة ألقاء مقاليد الحملة العسكرية لقائد عسكرى محترف، ولكن لن يتم الأتفاق على قائد موحد للحملة بسبب الطمع والبحث عن المصالح الشخصية لقادة الحرب المقدسة ،

ولم يكن البابا أوربان هو أول من دعا لحرب تكون وجهتها بيت المقدس، بل سبقه البابا جريجورى السابع فى عام 1074م عقب معركة ملاذكرت مباشرةً، فالحرب الصليبية أضحت أقوى سلاح فى الترسانة الباباوية، يستطيع البابا إستخدامها وقت ما يشاء، وأين ما يشاء، وضد من يشاء، سواء المخالفين فى العقيدة، أو المذهب، وحتى ضد الخصوم السياسيين، لهذا حرص الباباوات على الإحتفاظ وحدهم بسلطة إعلان الحملات الصليبية، وتقديم الإمتيازات الروحية والمادية التى يتمتع بها جنودها، وأستخدم الباباوات سياسة العصا والجزرة، العصا المتمثلة باللوم والحرمان الكنسى، والجزرة المتمثلة فى الغفران والخلاص ،

[29] الحروب الصليبية ج1ص107

ليصبح الصليبيون طبقة جديدة لها رونقها فى المجتمع الأوروبى، تفتخر الأسر النبيلة بوجود فرد منها مشترك فى حملة صليبية، بعد أن أصبح أكبر مدح للبنلاء بأنه "متمرساً فى الحروب"[30]،

وواجه الأمراء الزاحفون للشرق مشكلة توفير التمويل اللازم لزحفهم، وتتكفل النقابات الدينية والجمعيات الكنسية بتوفير جانب معتبر من هذا التمويل للكثيرين من الزاحفين شرقاً، فى الوقت الذى طُولب السيد الإقطاعى تبعاً للعرف الغربى بتغطية نفقات فرسانه وباقى قواته، لتقوم الأديرة بإقراض الساده الإقطاعيين بعد إتخاذ ممتلكاتهم رهناً على أن يسدد قيمة القرض من ريع هذه الممتلكات، وكما قام النبلاء بفرض ضرائب باهظة على أتباعهم من الفلاحين وأهالى المدن الواقعة داخل حدود إقطاعياتهم لتوفير جانب من نفقات الحملة، بينما يقوم البعض برهن أقطاعياتهم لأقاربهم، فقد قام روبرت دوق نورماندیا برهن دوقيته لأخيه وليم روفرس ملك إنجلترا مقابل عشرة آلاف مارك، ليقوم وليم ملك إنجلترا بفرض ضرائب عامة على رعاياه ومصادرة أموال الرهبان لتوفير قيمة القرض

وقد أنتشرت ظاهرة فرض ضرائب باهظة لتغطية نفقات الحملات الصليبية لعل أشهر هذه الضرائب هى الضريبة التى فُرضت عقب إنتصار صلاح الدين بمعركة حطين، وعرفت هذه الضريبة الباهظة بعشور صلاح الدين والتى قدرت بعشر الدخل والممتلكات المنقولة لمدة عام على الجميع حتى رجال الدين ولم يستثنى منها إلا الصليبيين فقط مع محاولة فرض رائحة من الإحسان والصدقات على هذه الضرائب الإجبارية ،

الأمر الذى يوضح الوضع الإقتصادى السيئ لأغلب النبلاء المشاركين فى الحملة، بينما لم يجد صعوبة فى التمويل إلا ستيفن كونت بلو واسع الثراء، وريموند أوف تولوز البخيل،

وتركزت قيادة الحملة فى كبار النبلاء الذين أبدوا رغبتهم فى الإشتراك فيها، أولهم كونت ريموند أوف تولوز، وهو كونت متقدم فى السن متقلب الأهواء كثير الأطماع، سبق له محاربة المسلمين بالأندلس، وشديد الطموح ويطمع فى منحه القيادة العسكرية للحملة كمكافأة نهاية الخدمة، قام قبيل سفره بمنح

30 تاريخ بيت المقدس ص35

كاتدرائية لوبوى تبرعات ضخمة بشرط إيقاد شمعة بأسمه أمام تمثال السيدة العذراء دوماً، وأن تتم الصلاة من أجله طيلة حياته،

وهيو (هيج) أوف فرماندوا Hug شقيق ملك فرنسا، والذى أراد بأرساله لأخيه نوال الغفران على جريمة الزنا التى أعترف بها وأشترط الغفران مقابل أرساله لهيو، ومن خلفهما روبرت أوف فلاندرز، وروبرت دوق نورماندى، وستيفن كونت بلوا الذى أجبرته زوجته على الإشتراك فى الحملة والتى كان كما يبدوا يخشاها أكثر من مشاق السفر والقتال، وجودفرى الرابع أوف بويون دوق اللورين وأخويه أستاس وبلدوين وأبن عمه المسمى بلدوين أيضاً، وبوهيموند أوف تورنتو أبن جسكارد والذى وقف ضده عمه وأخوته فى طريق توسيع ممتلكاته بإيطاليا فطمع أن تفتح له الحرب المقدسة ميدان أخر لتوسيع ممتلكاته ورافقه أبن أخته كونت تنكريد ،

أما باقى نبلاء الحملة فكانوا ينتمون إلى الفرسان الأتباع المغمورين المفلسين الذين كانوا يخدمون بحاشية ملك أو عائلات نبيلة، أو نبلاء ذوى أصول متواضعة وممتلكات ضئيلة، ممن يحيون بأوروبا حياة مماثلة لحياة كبار الفلاحين، ولم يكونوا من ذوى المكانة المرموقة والوضع الإقتصادى الممتاز،

ومن قبل هؤلاء بطرس الناسك Peter The Hermit (1050-1115)، تلك الشخصية العجيبة، وكأنها فرت للتو من مخيلة راوى شعبى، وهو راهب فقير جوال فرنسى الأصل أسمه الحقيقى كوكو بيتر، قصير القامة، بينه وبين النظافة عداوة، إعتاد أن يتجول حافى القدمين، مرتدياً أسمال قذرة، يرى متابعيه إزدياد قداسته كلما إزدادت ملابسه قذارة، يتنقل ممتطياً حماراً يصفه معاصريه بأنهما متشابها السحنة كما أن رائحتهما متطابقه، وأستعان بطرس بلألاف من الخرافات النبوئية لإقناع البسطاء والدهماء والرعاع بأن الطريق إلى القدس ممهد وقريب، كانت الأوبئة والفيضانات التى حفل بها عام 1094م لها تأثير السحر على الألاف لتلحق ببطرس الناسك وتتبعه، مكونه أرتال طويلة من العربات المتهالكة التى تجرها الثيران العجفاء والمحملة بأمتعة حقيرة وطوفان من الرعاع الجياع شبه العراه بأسمالهم البالية الرثة، الكثيرين منهم أصطحب عائلاتهم فلم تكن هناك أية نوايا للعودة لأوروبا، ليزحف جيش بطرس المفتقد لقيادة موحدة فى إبريل 1096م والمفتقر للنظام بنفس القدر لإفتقاره للطعام، كالجراد الذى يبحث عن ما يصِمت به صرخات الجوع

القاسى، ناشراً الدمار والخراب بالأراضى المنكوبه بمروره، تسيطر عليهم سيكلوجية الحشود الغاضبة وسلوكها المدمر، وأقصى ما حصلت عليه هو مجموعة متواضعة من صغار النبلاء والفرسان الذين لا يؤبه بهم ـ وقد قام هؤلاء الفرسان بنهب الكنائس بمسقط رأسهم لتأمين نفقات الرحلة المقدسة ـ، بقيادة والتر سانزافوار(المفلس) الذى يبدو أنه كان له حظ كبير من أسمه، بينما هناك فصيلة من قوات بطرس الناسك كانت تسير خلف قيادة أوزة معتقدة فى قدسيتها وإنها تتلقى وحياً من السماء وستصل بهم لبيت المقدس سريعاً، والأقنان الذى فروا من أسيادهم وينظروا بعين الإرتياح لوجود فرسان إقطاعيين ضمن جيشهم ،

أستيقظ الأمبراطور ألكسيوس على واقع غير مستحب له، فبعد ما كان يريد مجرد مرتزقة فرادى أو مجموعات صغيرة من فرسان الفرنجة لتخدم بجيشه لإستعادة سيطرته على الأناضول، إذا به يفاجئ بإعصار من جيوش كبار نبلاء أوروبا، الأمر الذى أثار دهشة وفزع أبنته المؤرخة أنا كومينينا التى تصف الجيوش الصليبية "يخيل أن أوروبا أقطلعت من أصولها، ويمكن الربط بينهم وبين عدد النجوم فى السماء أو الرمال على شاطئ البحر" وتصفهم بقولها "أن الفرنج على إستعداد لبيع زوجاتهم وكل ما يملكون لقاء حفنة من المال" وتقول إيضاً "تتابع إقتراب البرابرة حتى تكاد العيون حدثاً عجباً"[31] وقد أعتاد المؤرخون اليونان بنعتهم بوصف البرابرة،

الأمر الذى جعل ألكسيوس ينظر بعين عدم الإرتياح لهذه الجيوش المتشردة ويخشى منها، فكأنه الساحر الذى أحضر شيطان فخرج عن سيطرته، فكل ما حاوله هذا الأمبرطور المجـرب الذى يحمل فوق كاهله خبرات خمسين عاماً هو الحفاظ على دولته من الذين أتوا لحمايتها، وحاول دائماً التأثير على أنصاف الهمج هؤلاء، متعمداً إرتداء الملابس الحريرية النفيسة المطرزة بالذهب بسخاء، فأول ما خطط له هو عدم السماح لهذه الجيوش للأجتماع بعاصمته ونقلها منفرده لأسيا الصغرى تباعاً، "لأن الأمبراطور خشى أن يتأمر الفرنج عليه"[32]، مع محاولة السيطرة على هؤلاء الفرنجة المحبين للنهب أثناء تنقلهم داخل أمبراطوريته، حتى أنه لم يسمح بدخول عاصمته إلا

31 الإكسياد ص271

32 تاريخ الحملة إلى القدس ص44

لمجموعات صغيرة من خمسة أو ستة أشخاص فقط[33]، بينما هو يخطط لذلك فوجئ بقدوم أول هذه الجيوش، جموع بطرس الناسك، التى ما أن ولجت داخل الأمبراطورية حتى أخذت فى نهب المجر والمناطق المحيطة ببلجراد مما أدى لإشتعال القتال بين أهالى المنطقة والجيش الصليبى المسافر لمهمة مقدسة، حتى فقد الجيش المقدس حوالى عشرة ألاف ما بين قتيل وأسير، ليدير الجيش المقدس سيوفه جهة اليهود ليتنزف منهم ما عرفوا به من ثروة، وينتقم من الربا الذى قيدوا به الجميع ،

والملفت هو ما نراه من إرتياح مؤرخ صليبى وهو وليم الصورى للمذبحة التى أرتكبها جيش بطرس ضد مدينة سملين المجرية، ويظهر وليم شماتته لمقتل أربعة آلاف مسيحى مجرى على يد الجيش المقدس[34] وهى المذبحة التى دفعت سكان بلجراد إلى الهروب من جيش بطرس وإخلاء مدينتهم من أما جيش الجوعى الذى لا يستطيع التميز بين ضحاياه ما دام لديهم ما يسلبه، لتتكرر الصورة فى مدينة نيش عندما أتبع جنود بطرس بطونهم وقاموا بقتل مواطنيهم بأوروبا، كأنهم لا يملكون صبراً على القتل، ليهاجمهم دوق المدينة ويطاردهم بعد أن لاذ الجيش بإذيال الفرار، ويعود الدوق من المطاردة بعد قتله العديد منهم وفى ركابه أسرى الجيش المقدس، بعد أن سبوا كثيراً من النساء، وأسترقوا العديد من الأطفال[35]، ليقضى قادة جيش بطرس الليلة فى دق الطبول ونفخ الأبواق لجمع فلول جيشهم الهارب، ويستمر الجيش المقدس فى مسيرته، ليسرق كل ما يقع عين جنوده عليه من ماشية وكل ما يؤكل، وقد لعبت وحشيتهم دور حاسم فى الجرائم والمذابح التى أرتكبوها طوال طريقهم ضد بنى جلدتهم ،

لتجد إنباء الثروات اليهودية التى تم الإستيلاء عليها مستقر فى أذن لورد إلمانى صغير يسمى إميخ (أميكو أوف ليننجن) لورد ليزنجين بحوض نهر الراين، والذى أشتهر عنه أنه قاطع طريق، وقد أشاع هذا اللورد بظهور صليب بجسمه، مما دفع الجموع للهرولة والإلتحاق بجيشه، ليزحف بهم إميخ 3 مايو 1096م ـ لاليغفر له ذنوبه ولكن ليقترف العديد منها ـ إلى مدينة شبير مستهدفاً يهودها، الذين أشتروا حماية أسقف المدينة، ليسابق إميخ أخبار جيشه

33 تاريخ الحملة إلى القدس ص 44
34 الحروب الصليبية ج1ص116
35 الحروب الصليبية ج1ص122

إلى مدينة ورمز ليقتحم الجيتو (الحى) اليهودى بها هو وأهالى ورمز، ليحاول يهود ورمز شراء حماية الأسقف أيضاً ولكن سيوف عصابات إميخ أسرع، بالرغم من إرسال يهود المدينة مائتى مارك للأسقف وسبعة أرطال ذهب لإميخ، ليختبئ يهود المدن الواقعه بطريق إميخ، الذى يستمر فى زحفه حتى حدود المجر، لتقع معركة بين قوات ملك المجر كولومان وقوات إميخ، يقتنع بعدها إميخ بضرورة عودته لبلاده والإكتفاء بما حصل عليه فى رحلته المقدسة من ذهب اليهود،

ما أن وصل جيش بطرس للقسطنطينية حتى ذهب لكنائسها الجيش الذاهب للحج، وقاموا بسرقة الرصاص الذين تزين به قباب هذه الكنائس، وبالمصادفة أنتشرت السرقات بقصور القسطنطينية التى أدارت فخامتها رؤوس متشردى جيش بطـرس، وإغُتصبت نساء المدينة، مما كان له عظيم الأثر ليحظوا بأهتمام الأمبراطور بسرعة نقلهم كيفما أتفق عبر البسفور وإلقاءهم على الشاطئ الأسيوى لبحر مرمرة، ليتركهم لمصيرهم أمام السلاجقة، بعد شعور الأمبراطور بصدمة من مظهر بطرس وجيشه من الرعاع الذى لا يوحى بقدرتهم مقارعة كتائب فرسان السلاجقة شديدى المهارة، لينصح الأمبرطور بطرس وقواده بعدم الإشتباك مع السلاجقة وإنتظار القوات الرئيسة للصليبيين،

بعد عبورهم البسفور إنقسم جيش بطـرس تبعاً لموطن كل قسم فقام الجنود القادمين من فرنسا بتشكيل كتيبة ضخمة من سبعة آلاف من المشاة وثلاثمائة من الفرسان والتوغل بالأراضى التى كان ساكنيها من المسيحيين اليونان، وقتلوا كل من صادفوه فى طريقهم حتى عادوا محملين بالغنائم وخلف ظهورهم يتعالى دخان الحرائق، التى دفع مشاهدتها الجنود الألمان لمحاكاتهم بكتيبة من ثلاثة آلاف من المشاة ومائتى فارس للحاق بثمار السلب، وتوغلوا هم بدورهم تحت قيادة أحد النبلاء الألمان المسمى رينالد حتى تسنى لهم السيطرة على قلعة هرسك المهجورة، ليسارع رينالد وقواته بنهب الأهالى الذين كانوا مسيحيون فى المجمل، ويستمر توغل رينالد حتى أسوار نيقية عاصمة سلاجقة الروم لتخرج حامية المدينة مجبره رينالد على التقهقر لقاعدته هرسك،

فى هذه اللحظة أرسل السلطان السلجوقى قلج أرسلان (سيف الأسد) بن سليمان أحد قادة جيشه الذى سرعان ما حاصر رينالد ورجاله نهاية شهر

سبتمبر 1096م لمدة ثمانية أيام، بعد قطع إمدادات المياه عن المحاصرين، وأسرهم جميعاً وقدمهم للسيف عقاباً على جرائمهم التى طالت حتى مسيحى اليونان، ويبدوا أن رينالد والكثير من رجاله لم يريدوا الموت فى بداية رحلة حجهم، فأعلنوا إسلامهم وإنضمامهم لصفوف السلاجقة الذين أرسلوا من أسلم من الألمان لداخل الأراضى السلجوقية بفارس وخراسان،

بينما أستغل السلاجقة جشع الصليبيين وأرسلوا جاسوسين يجيدان اللغة اليونانية، أشاعوا إستيلاء رينالد ورجاله على نيقية عاصمة السلطان السلجوقى قلج أرسلان بن سليمان مع سرد الغنائم التى يتنعمون بها، مما زاد شوق باقى الجيش للهجوم على نيقية ومحاربة الألمان حتى ينالوا ثواب القتال فى سبيل الحج، ولكن الحقيقة تكشّفت قبل تحرك الجيش عند وصول أحد الناجين من جيش رينالد، مسرداً الكارثة التى حلت بهم،

وتقدمت قوة سلجوقية لملاقاة باقى جيش بطـرس الذى رفض إنتظار عودته من القسطنطينية وتقدم للسلب والنهب والإنتقام للقتلى فى جيش يبلغ حوالى خمسة وعشرين ألف من المشاة وخمسمائة فارس، وما أن تقدم هذا الجيش حتى وقع فى كمين السلاجقة الذين أخفوا جيشهم بالغابات والأحراش، وما أن أصبح جيش الصليبيين فى مرمى سهامهم حتى أمطروهم بوابل من السهام أعقبها هجوم كاسح لم يستطع الصليبيون مقاومته، ولم تستمر معه المعركة إلا للحظات، أعقبها هروب الجيش الصليبيى لمعسكره فى فوضى عارمة، يتعقبه فرسان جيش السلاجقة حتى قُتل أغلب الصليبيين، ومن نجى منهم كُتب عليه الرق، وكان الحظ رفيق ببطـرس حيث كان فى هذه الأثناء يتسول من الأمبراطور بالقسطنطينية ما يمسك أوده هو ورجاله، وكذلك يبحث عن الأمان فى القسطنطينة عندما شعر بالنهاية المنتظره جيشه المتمرد، الذى لم يستطع السيطرة عليه، ليرسل الأمبراطور البيزنطى بعض سفن أسطوله لتخُلى من كتب له النجاة من جيش بطـرس، وتفرض عليهم تسليم أسلحتهم والأقامة الجبرية حتى وصول قوات الأمراء الإقطاعيين ،

تبع هؤلاء ثلاث جيوش تحت قيادة ثلاث من صغار النبلاء ورجال الدين حملتان تحت قيادة واعظان وهما الكاهن فولكمار وجوتشوك وحمله تحت لواء كونت صغير أسمه إيمش قامت الأولى والثانية بتوجيه سيوفهما ضد يهود المجر وأن لم تستطع سيوفهم التفرقه بين اليهود والمسيحيين، ولحقت بهما الثالثة فى مهمتهما بنفس الهمة حتى تم القضاء عليهم تماماً بمعرفة

جيوش ملك المجر، ومن نجى من هذه الجيوش رجع لبيته لينال الراحة من وعثاء قتل مواطنيه، وبهذا تم القضاء على ما أطلق عليه بعض المؤرخين حملة العامة، ولتبدء مرحلة الحملة الصليبية الأولى الحقيقية أو ما يطلق عليه حملة الأمراء